# من ذكريات بغداد

# (نورا)

## - 1 -

في سنة 1932 زهي السنة الأخيرة من سنيَّ الثلاث في بغداد كنت أعيش في أسرة مسيحية تؤثث في دارها الوسيعة غرفتين أو ثلاثًا لينزل فيها من تصطفيهم من نزلاء العاصمة.

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على فناء سماوي رحب. يشتمل الأسفل على ردهة يسميها العراقيون طارمة، وسرداب عميق أصم تلوذ به الأسرة في الصيف من وقدة الحر، ومرافق الدار من حمام وسقاية ومطبخ.

ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان فخم الأثاث تغطي أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد إيران، وتزين جدرانه ونوافذه طنافس الحرير وستائر المخمل. ويتصدره بيان عريض نضدوا عليه تحفًا من تماثيل المرمر وبراويز الأبنوس، ونثروا على الكراسي القريبة منه آلات الموسيقى من عود وكمنجة ودف وناي، ويتوسطه منضدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر قد وضعوا عليها ما يحتاجه لاعبو البردج والبوكر. ثم يشتمل بعد على ثماني غرف لنوم الأسرة والنزلاء تتلاصق وتتناسق في صف واحد على ممشى دائري يطل على الفناء وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن يريد أن يتصل بالسماء أو يتمتع بالهواء، على نحو ما تجد على ظهور البواخر.

أما الأسرة فكانت تتألف من زوجين كهلين ومن ثلاث بنات وثلاثة بنين. وكان سر الوراثة الذي يجعل من الزوجين الأسودين من الكلاب الطليقة ستة جِراء فيها الأسود والأبيض والأبقع والأصهب والأغبر والأشقر، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة من الصور والألوان والطباع لا يشترك في شيء منها أخ وأخ ولا أخت وأخت. ولكنهم ينفقون جميعًا في الولوع بالموسيقى والنبوغ في العزف على آلاتها المختلفة.

فإلياس الأخ الأكبر يهدف للرابعة والعشرين من عمره. أزهر اللون أشقر الشعر ممشوق القامة قسيم الوجه، ينظر فيكسر من عينيه. ويبتسم فيضم من شفتيه، ويتكلم

فيغض من صوته. فلولا أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة في رونق الشباب وميعة الأنوثة. يعلم الموسيقى في المدارس والبيوت، ويعزف الألحان في السوامر والأندية.

وميشيل طريده في العمر قمحي اللون تشوبه صفرة الخمر، مليح القسمات تشيع فيها جاذبية قوية، أسود الشعر تجتمع منه خصلة على جبينه المصقول فرقها عند فوده الأيسر. في قده طول، وفي صوته غُنَّة، وفي حركاته مرح، وفي هندامه أناقة. وهو لا يزال طالبًا في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية.

ورفائيل أصغر الأخوة وضيء الطلعة شاحب اللون رقيق البدن يسيل شعره الأصفر المغدودن من وراء أذنيه على قذالة. وهو هادئ الطبع خفيف الظل شاعري العواطف يقعد على الرغم من صغر سنه مع أخيه الأوسط في فصل دراسي واحد.

أما البنات فكن عند نزولي على الأسرة اثنتين: مرجريت، وهي فتاة في ربيعها السابع عشر، مسنونة الوجه مرسلة الشعر طويلة العنق مسحاء الثدي، تميل إلى الطول وتقف بين النحيفة والبدينة. ولعل محياها المطموس لا يوحي إليك شيئًا من ذكاء أو أثرًا من عذوبة؟ ولكنك إذا جالستها أو لابستها لا تعدم أن تسمع منها حديثًا يمتع، وأن ترى فيها خلة تعجب.

وجورجيت صغري الأخوات صبية لا تزال في عمر البدر، مطهمة الوجه، بضة البشرة، ممتلئة البدن، في جفنيها انتفاخ، وفي شفتيها غلظ، ولكنها على قلة حظها من الجمال لطيفة الروح، فكهة الحديث، مرحة الطبع، تتكلم ولا تستحي، وتمزح ولا تعف؛ وهي مع أختها الوسطى بمدرسة أمريكية للبنات في حي (باب الشيخ).

تلك هي الصفات البارزة المميزة في أولاد هذه الأسرة رسمتها خطوطًا مجردة من غير تظليل ولا تلوين، لتبين على التقريب الفروق الخلقية بين بعضهم وبعض. وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ومن اللطف والغلظ، ينم على طبيعة الروح من الخير والشر، ومن الطيب والخبث، فإن هؤلاء الأولاد من بنين وبنات يختلفون اختلافا بينًا في الخلق والطبع والسلوك والنزعة. فمتهم المخادع الحصيف الذي يسعى للمال من

أي طريق، والماجن الظريف الذي يطلب اللذة من أي نوع، والفنان الرقيق الذي يعشق الجمال في أي صورة.

ومنهن الساذجة السهلة التي تصدق كل خبر، وتفشي كل سر، وتلبي كل طلب، ولا يهمها أن تخرج مع سيد أو خادم. والطائشة الوقحة التي جعلت همها اللعب والحلوى، ودأبها العبث والضحك، ولا يختلف عندها أن تنال ما تريد بحق أو بباطل.

لا يمكن أن تنشأ في هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة من فعل الوراثة القريبة المباشرة، فإن الوالدين يعقوب وماري لم يجمعا في أخلاقهما الشيء ونقيضه ولا المعنى وضده.

فالزوج من رجال الأعمال المجدين، يتصرف لعياله في التجارة فيتقلب من صنف إلى صنف، ويضطرب من أرض إلى أرض، لا يدخر جهدًا ولا يضيع فرصة. يصدر الجلود والتمور، ويستورد الآلات والسلع، لا يتقيد بصنف واحد ولا ببلد معين، وإنما يتخير بحاسته التجارية التي تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة المستهلك. له مخزن للحفظ وليس له متجر للعرض. وسبيله في البيع أن يستعين بالوصولية والميكافلية على إقناع ذوي النفوذ في الوزارات والشركات أن يشتروا بضاعته جملة.

وهو من مخلفات العهد التركي في العراق: يتكلم التركية ويلبس الطربوش، ويحسن إحناء الظهر عند السلام، ويتقن إذابة الملق في الكلام، ويعرف كيف يدخل إلى هواك ورضاك من الباب الذي يؤدي.

والزوجة من ربات البيوت الصالحات يظهر عليها السنين الخمسين وعناء الحياة العاملة. وهبت نفسها لخدمة زوجها وبنيها فلا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ. على أن كثرة عملها وطول همها لم يحميا جسمها من الشحم فتراكب لحمها واسترخى. ثم اعتراها على الكبر صمم خفيف فزهدت في الاجتماع بالناس واكتفت من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها يمثلون على عينيها الجانب البهيج المرح من الحياة. كانت لا تشارك في الحديث لأنها لا تسمع أكثر ما يقال، ولا تدخل في اللهو لأنها لا تعرف أكثر ما يُلعب. إنما كان دورها في حفلات الدار أن تعد الحلوى وتهيئ

المزة وتقدم الشراب وتُعنى براحة السامرين والسامرات فلا يشوب صفوهم كدر، ولا يدرك لهوهم نقص.

كانت ماري طيبة فلا تكره حتى العدو، وكانت سمحة القياد فلا تعارض حتى في الضرر، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر حتى في الصحيفة. كان مصدرها الوحيد الذي تستقي منه العلم والخبر والرأي هو زوجها يعقوب حين يخلو أحدهما إلى الآخر في غرفة الطعام بعد انصراف الأولاد كل إلى شأنه.

**- 2 -**

كانت الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل أو إلى العلم تسكن سكون الدير وتوحش وحشة الطلل فلا تكاد تسمع صوتًا ولا حركة.

كانت السيدة والطاهي يعملان في صمت. وكانت الخادمة والخادم ينظفان في سكون. وكنت أنا في الغرفة أو في الممشى أقرأ أو أكتب أو أنام. ثم تعود الحياة فتنتعش وقت الغداء ولا تلبث أن تهمد. فإذا أقبل الليل أمست الدار ردهتها أو سرادبها أو بهوها على حسب الفصول مقصفًا لا يشبع من القصف، ومرقصًا لا يفتر عن العزف، ونواديًا لا يكف عن اللعب. إلياس يدق بأنامله العشر على معزف البيان، وميشيل يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود، ورفائيل يمر بقوسه المشدودة على أوتار الكمنجة، ومرجريت وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعوين فلا تخرج إحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل في ذراع كهل: وفي الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوذ في الوزارات أو الشركات يقارعهم يعقوب الكأس ويفاوضهم في صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة: وجه لهم ووجه له. ويجتمع هناك ببعض أرباب اللهو من الشباب يعابثون الفتيات ويتسابقون إلى قلوبهم بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية. وبين هنا وهناك يجلس مع الأم ماري امرأتان ممن ودعن أيام الصبا والغزل يثرثرن في أخبار النساء وأسرار البيوت، ويقبل عليَّ رجلان أو ثلاثة ممن قعد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون في حديث الأدب والسياسة.

فإذا انقضى الهزيع الثاني من الليل وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص انصرفت طائفة وتحلقت أخرى حول موائد الحظ يلعبون البوكر ويتبادلون السعد والنحس، ويتقارضون الرضا والسخط، والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون الفيشات تتجمع وتتفرق أمام اللاعبين كأنها كثبان الرمل في يوم عاصف تنقلها رياح الصحراء من هنا لتكومها هناك، فيبتهج قوم ويكتئب آخرون إلا الزوجين يعقوب وماري فقد كان ابتهاجهما لا ينقطع لا في الربح ولا في الخسارة، لأن (الجنيوتا) أو حصة المائدة من القمار كانت تضاف إلى حصيلتهما في كل دور على أي حال.

وهكذا كان صاحب الدار بفضل بنيه وبناته يستفيد من طائفة الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه، ومن طائفة المقامرين حفنة من النقود يصلح بها أمره.

ثم كان في الجهة الجنوبية من الطابق الأعلى غرفة منعزلة تحمرُّ في أكثر الليالي، ولكنها لا تبلغ في الاحمرار مبلغ الصالون لا في الكم ولا في الكيف. تلك كانت الغرفة التي يسكنها قنصل دولة من الدول الإسلامية غير العربية. كان هذا القنصل يمر بغرفتي في ذهابه وإيابه، فيلقي عليَّ التحية بفضول، وأردها عليه بقتور، ولم أجد من نفسي دافعًا إلى أن أصل ما بيني وبينه بسبب من المودة. كنت كلما رأيته أتصوره خنزيرًا على رجلين! وليس وجه الشبه قاصرًا على أنه ضخم الجثة قصير القامة جهم الوجه، وإنما كانت فيه مشابه أخرى من هذا الحيوان أخصها قذارة معنوية طالما حدثتني عنها الآنسة مرجريت.

كان هذا الرجل مصابًا بالشذوذ، وكانت خلقته الجافية لا تبلغه ما في نفسه، فكان يستعين بالهدايا والحلوى على اجتذاب الولدان إليه واستئناسهم به. ثم ادعى الغرام بالموسيقى فاشترى عودًا وطلب من إلياس وأخويه أن يعلموه العزف عليه بالأجر، وبهذه الحيلة استطاع أن يجعل من غرفته ماخورًا صغيرًا يغص في أكثر الأحيان بألوان من الندامى وأفنان من اللذة.

حسبك ما ذكرت من التعريف بالدار والأسرة. لعلك قد تهيأت الآن إلى أن تسمع القصة:

**- 3 -**

عدت ذات يوم من أيام إبريل من عملي إلى الدار في فترة القيلولة. وهي فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة في جميع البيوت. ولكني لم أكد اجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجنسين، والضحكات الرقاق والغلاظ يتجاوبن فيطردن الوحشة عن صحن الدار، والأم وأولادها يخطرون في زينتهم بين المقاعد يؤهلون ويرحبون بالزوار. فألقيت على الحضور نظرة عابرة، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من وقع بصري عليهم ممن أعرف، وأخذت طريق السلم إلى غرفتي الخاصة. وبعد قليل أقبلت الخادمة على عادتها تحمل إليَّ دورقًا من الماء المثلوج، فسألتها عن سبب هذا الحفل في هذه الساعة. فقالت: إن الآنسة (نورا) قد عادت من دمشق منذ ساعتين، وقد قدمت معها عمتها وبناتها. وهؤلاء هم مستقبلوهن من الأقربين والمحبين والمعجبين وعددهم يزداد من لحظة إلى لحظة.

نورا؟! آه! لشد ما لهجت ألسن بهذا الاسم! ولطالما تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الاسم!.

لقد عرفت عن نورا بالسماع مثل ما أعرف عن مرجريت وجورجيت بالعيان. عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات في مدرسة ثانوية للراهبات في دمشق، وأنها تقيم مع عمتها بباب توما ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء والعقل والحساسية والأنوثة قلما تؤتاه فتاة في سن العشرين، وأنها مخطوبة بالوعد لشاب من موظفي البنك العثماني عرفته فيمن يكثرون التردد على مجلس هذه الدار.

ولم أجد في نفسي الرغبة الملحة في أن أنزل لأهنئ الأسرة بقدومها، وأشارك القوم في الاحتفال بها، فقرأت قليلاً ثم نمت.

وفي المساء عاد الحفل فانتظم في البهو الواسع فدخلته فيمن دخل، وقدَّم إليَّ الأب يعقوب ابنته نورا ومن قدم معها من قريباته. فسلمت الفتاة في استحياء، وغضت من بصرها وهي تتم بالعبارات المألوفة عند السلام والتعارف.

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالي بالرقص والخمر، لتنتهي كالعادة بالوجوم والقمر، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البريء، تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى في العادات واللهجات بين سورية والعراق ومصر.

وكان عبء الحديث واقعًا على السيدة اللبقة التي تدير فندقًا كبيرًا في سرة دمشق، وعلى تاجر كهل فكه يكثر التصرف والتقلب في أقطار العروبة. وكانت نورا كالعروس على المنصّة تسمع في صمت وتنظر في خفر وتتكلم في وقار. وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما في وجه نورا لا أكاد أطرف، مُصيخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعي ... كان وجه نورا جملة من القسمات الحلوة والملامح المعبرة في صورة من الفن الإلهي المبدع لا يقع مثلها في الإمكان لأزميل مثال أو ريشة مصور أو قلم شاعر. ولا تظن فيما قلت مبالغة من زخرف الحديث، فإن كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلاً فيمن رأى من الأوانس. وليس لإقبال الشباب والكهول على الاحتفال بها والارتياح لها من سر إلا جمالها الفاتن وجاذبيتها الطاغية.

ربما لا يجد المتحذلقون من خبراء الجمال جسمها منطبقًا على مقاييس الفن إذا أخذوه عضوًا عضوا، ولكن الروح التي تنبثُّ فيه، والفتنة التي تنبعث منه، والعذوبة التي تهيمن عليه، شيء يسمو على المقاييس ويخرج عن دائرة الفن.

لم أكن أنا وحدي الذي انعقد نظره بوجه نورا واشتغل قلبه بحسن نورا، وإنما كان أكثر الجالسين ينقلون أبصارهم عند الضرورة من شخص إلى شخص ومن شيء إلى شيء ثم يعودون فيقفونها على محيا نورا. أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبسماتها أنها تتيه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن. وأما الأب فقد كان يبدو من هيئته ولهجته أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفتنة، وأما الخطيب فقد كان يلوح من حركاته وكلماته أنه يُزهى على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة! ولندع بعد ذلك الحوادث تتوارد وتتوالى في الأيام التي ستتعاقب على هذه الليلة.

**- 4 -**

أصبحت نورا مركز الجاذبية في الدار. فحيثما تكن يتهافت عليها الناس من العشيرة والجيرة. وكان لهذا التهافت في الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبع

والحالة. فالأختان وأترابهما كن يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استُحدث من ضروب الزى والزينة في سورية ولبنان، والإخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوا شيئًا من صبوات الشباب وخلوات الهوى في دمشق وبيروت، والوالدان وأقرباؤهما كانوا يحاولون أن يكشفوا سر هذا التغير الذي طرأ على نفس نورا، فهي لا تنشط لحديث، ولا تهش لزائر، ولا تنبسط للهو ... وكان عهدهم بها أن لسانها الحلو لا يكف عن الدعابة، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك، وأن روحها اللطيف لا ينقبض عن الأنس.

وكنت لاحظت وأنا بعيد أن الصلات الواهنة بين أعضاء هذه الأسرة قد عادت إلى طبيعتها من الأحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة. كان أفراد هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق، يضمهم بناء واحد، وتجمعهم مائدة واحدة، ولكن لكل منهم عمله ونيته وخطته ووجهته وغرضه. فلما عادت نورا كانت كالخيط الذي ينظم العقد المنثور، والروح الذي يمسك الجسد المنحل.

ولعل السبب في ذلك أن المرء بطبعه يحب في غيره ما ليس فيه؛ فالجبان يحب الشجاع، والهيوب يحب الجريء، والعيي يحب الفصيح، والقبيح يحب الحسن ... ولهذا كان الناس يحبون الأبطال والآلهة. والله قد كمل نورا بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح، فهم يحبونها جميعًا ويرون فيها الجزء المتمم لكل منهم. والحب سر التجاذب والتضام في الكون كله. هو الذي يجعل من حبات الرمل جبلاً، ومن قطرات الماء بحرًا، ومن أفراد الناس أمة.

ولم أر نورا قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت إليه. إلا أن ما رأيت منها، كان يختلف كلا الاختلاف عما سمعت عنها. كانوا يقولون إنها بهجة الدار وزينة البهو وروح الحديث ولحن البيان ومرح الرقص، ولكني أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيل السكوت، مضطربة البال تطلب الهدوء، ضيقة الصدر تؤثر العزلة. وعبثًا حاول أهلها أن يوقظوا فيها رواقد اللهو، وأن يشعروها أن بجانبها خطيبًا برَّح به الشوق وثقل عليه الانتظار فمن حقه أن يجلس إليها وأن يخرج معها.

وأقام أبوها حفلة ساهرة في الطابق الأسفل من الدار، وكانوا قد أنزلوا إليه الفرش والأثاث من الطابق الأعلى في أواخر مارس حين يبدأ الصيف في بغداد، وينقلب البيت فرنًا من غير وقود، والهواء لهبًا من غير دخان فغصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعوين من رجال المال والأعمال واللهو تصحبهم نساؤهم وبناتهم في بزتهم الجميلة وزينتهن الرائعة. وكان الخواجة يعقوب قد أراد بإقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة صوفي، ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الأنس على قلب نورا، وأن يخرج إلى النور بعض السلع التي طال عليها الرقاد في ظلام المخزن. وكانت منية النفس لكل حاضر أن يظفر من نورا بكلمة أو جلسة أو عزفة أو رقصة، ولكنها لأمر ما أعرضت عن الأركان الصاخبة في الحفلة وأقبلت على عجائز أمها فجلست إليهن قليلا ثم انتقلت إلى الركن الهادئ الذي أجلس فيه مع الأستاذ رفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب وأخذت مجلسها بجانبي.

وكان الأستاذ رفائيل (عليه رحمة الله، فقد توفى منذ عامين) واسع العلم بأحوال البلاد العربية ورجالها فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر عن أي كاتب أو شاعر أو أديب في مصر ولبنان وسورية. فكان الحديث بيننا شجونًا من النوادر والطرَف أخرجنا عن جو الحفلة. فلما انضمت إلينا نورا اتجهت نحونا الأنظار فشعرنا ثانية بأننا أفراد من هذا الجمع المضطرب في اللهو والأنس، فلابد أن نرجع إليه ونشارك فيه. ولكت نورا آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر، فإن أحب الأحاديث إلى قلبها كما تقول ما اتصل بها وبأهلها، وأنها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أي بلد آخر. وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصموت تبسط أسارير وجهها بالضحك، وتحل عقدة لسانها بالكلام، وتروي الخبر بعد الخبر، وتورد النكتة بعد النكتة، بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات يسيرة من لهجة دمشق. فقلت لها وأنا لا أملك نفسي من الدهشة: هل زرت مصر كثيرًا وعشت في القاهرة طويلاً؟ فقالت في لهجة تنم على الأسى والأسف: لم يكتب لي الله هذه السعادة بعد! فقلت لها: إذن كيف تهيأ لك أن تعلمي هذا العلم، وأن تتكلمي هذه اللغة؟ فتشاغلت عن سؤالي بابتسامة خافتة ولم ترد أن تجيب.

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه فعجبوا أن تستوحش في مكان فيه الخطيب والقريب، وتستأنس في مكان فيه البعيد والغريب!.

وكانت الأم ماري وصواحبها قد أقبلن على السيدة صوفي أخت يعقوب يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذي أصاب نورا فأمات فيها الشعور بمتاع الحياة، فقالت السيدة وهي تخافت من صوتها: أما السر فلا يعلمه إلا الله. ولقد اعترتها هذه الحال منذ أكتوبر الماضي فعرضتها على الطبيب فقال: إنها مريضة بالقلق النفسي من الإرهاق أو الحزن أو الهم، وتفيدها الراحة والتسلية والنقلة. ووصف لها أنواعًا من العقاقير ساءت عل تعاطيها الحال واشتدت العلة، فكانت تنفر من المخالطة، وتطمئن إلى الخلوة، وتكثر من الصلاة، وتواظب على القداس، ونضارتها في خلال ذلك تذوي وبشاشتها تزول، فرأيت أن أجرب النقلة فرحلت بها إلى بيروت في عطلة عيد الميلاد فتسلت بعض التسلي وتحسنت بعض التحسن، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى حالها الأولى بعد أن عدنا إلى دمشق. وكان معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسي فعالجها مرة بالدعاء ومرة بالدواء فما نفع الدين ولا أفاد الطب. وأخيرًا جاءت عطلة عيد الفصح فرأت أن أعود بها إلى بغداد عسى أن تجد في الوطن الذي نشأت به وفي العش الذي درجت فيه ما يدفع عن جسمها هذا الذبول ويذهب عن نفسها هذا القلق.

وكان في الحفل أربع أعين لا يدخلهن شعاع السرور ولا يقرهن متاع الغبطة: عينان في وجه الخطيب وعينان في وجه أمه. كانت عينا جاك تخضلان بالدمع كلما رأتا خطيبته لا تحفل به ولا تنظر إليه. وكانت عينا أمه تشعان بالسخط كلما رأتا نورا تقبل علينا ولا تقبل عليه. وعلى فجأة من لهو اللاهين ولعب اللاعبين، سقط جاك من فوق كرسيه فاقد الوعي متخشب الجسد مختلج الأطراف مصطك الأسنان مزبد الفم، فصرخت أمه وفزع الحضور وخفوا إليه بالمسعفات حتى أفاق. وكانت نورا ممن أسرعوا إلى المصروع بالمنبهات فخضها بالشكر. واضطجع على الكنبة ريثما استراح ثم تحامل على بعض أصدقائه وخرج.

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة فتكدر الصفو وانقطع اللهو وانصرف المدعوون.

**- 5 -**

وفي بكرة اليوم التالي وكان يوم أحد دخلت عليَّ السيدة ماري وفي يدها صينية صغيرة عليها قدحان، فحيتني تحية طيبة ثم قالت وهي تضع الصينية على المائدة: عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصطبح معك بقدح من الشاي وأبوح لك بأن نورا منذ رأتك تظهر الاهتمام بك وتكثر السؤال عنك، وقد رأيتها في الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها إليك. ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لواعج الحزن والهم، فقد عجزت عمتّها وعجزنا عن كشفه. ثم روت لي ما قالته السيدة صوفي عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهي إلى انهيار عصبي لا يرجى برؤه. وعقبت عليه بأنها شديد القلق على مستقبل لبنت فقد رفضت أن تعود إلى الدراسة بدمشق، وكرهت أن تظل مخطوبة إلى جاك. وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جرَّاء صدودها عنه وهو من أكثر الشبان مالاً ومن أرفعهم وظيفة. إن نورا كما ترى معبودة الأسرة. وإنا لنبذل في سبيل سعادتها أنفس ما نملك. وليس جمالها وحده هو الذي أحلها من قلوبنا هذا المحل. إن لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أخر أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين، وللدين عل أقوالها وأفعالها السلطان القاهر منذ الطفولة؛ فهي لا تقول لنفسها ما تخشى أن تقوله للناس، ولا تفعل في سرها ما تكره أن تفعله في العلن، ولا تجري في أمورها إلا عن سنن القديسين والرسل. فإذا أصابها مكروه في صحتها أو في سعادتها أصاب الأسرة في صميم حياتها فلا تنتفع بعدها بالعيش. فالرجاء في الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذي تختاره، وسأرسلها إليك متى عادت من القداس.

* * * * *

من النفاق المحض أن أقول إن شعوري بهذا التكليف كان شعور الخلي المحايد. الحق أنه كان شعور الحالم الذي صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات، في صور زاهية من الواقع واللذات، ثم تيقظ، فإذا به يرى الحلم حقيقة واقعة يبصرها

بعينه ويلمسها بيده. كنت في خلال الأسبوع الذي مضى على هذا الانقلاب في الدار أتابع هذا الحسن الرائع بحواسي الخمس وهو يجيء في الممشى أو يذهب، ويدخل الغرف أو يخرج، ويتكلم في البهو أو يصمت، فيمنعني الحياء أن أدور في فلكه وأن أدخل في شعاعه، ثم أصبح، فإذا بي أسمع أنه يسأل عني ويفكر فيّ، وإذا بي أرى أن القائمة عليه تنيطه بي وتكله إلى!! فهل تصدق القط الذي أعطاه أهل الدار مفتاح الكرار إذا زعم أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ورأسه بارد ونفسه عزوفة؟ قد يكون هذا القط صوامًا قوامًا يجعل من هذا الكرار صومعة لنسكه ومحرابًا لصلاته، ولكن إخفاءه حقيقة شعوره وطبيعة سروره رياء صريح.

سمعت نقرتين على باب غرفتي ففتحته فإذا نورا في ثياب الأحد وطلعة الملاك تبتسم وتقول: أخبرتني أمي أن للسيد حاجة إلي. فقلت وأنا أهيئ لها الكرسي لتقعد: إن حاجتي إليك حاجة الغريب إلى الأنس والضيف إلى الإكرام. فقالت: لست غريبًا وأنت في دارك، ولا ضيفًا وأنت بين أهلك، وإن العائلة كلها كما سمعت ولاحظت تحبك وتحترمك.

فقلت لها: إن غربة الروح أشد من غربة الجسد. وربما ظل الرجل طول عمره غريبًا بين أهله إذا لم يوافقوه في هوى ولم يشاركوه في شعور. ولهذا شعرت من إشعاع نفسك علي من بعيد أن بيني وبينك أُلفة من الروح لو كان لها تجاوب في شعورك لوجد القلب بجانبه قلبًا يتفتح له ويتصل به ويسكن إليه. ولعلي أدركت أن سر انقباضك عن الناس أنهم لا يشبهونك في خلق ولا طبع، ولا يفهمونك في إحساس ولا فكر. فهل أدركت الصواب أو على الأقل واجهت الحقيقة؟.

وكانت الفتاة قد حدقت ببصرها إليّ وأقبلت بسمعها عليَّ، وقالت: إن ما قلته عن نفسك وعني لم يجاوز الحق. وإن ما أدركته أنت من سر انقباضي هو ما أدركته أنا من سر انقباضك. وقد كنت على وشك الاتصال بك لو لم تأمرني بلقائك أمي. وما كان جلوسي إليك البارحة في الصالون إلا تمهيدًا لذلك. أما لماذا اخترتك من غير معرفة، وألفتك من غير صلة، فعلم ذلك من مكنونات النفس فلا أعرف له باعثًا ولا علة. وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصري وقلبي معمور بحب مصر، وإني مريضة

ومرضي محتاج بطبيعته إلى مؤاس من نوع خاص. ولم يكذبني قلبي فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسي وتكشف عن ضميري.

لم أر في الجلسة الأولى أن أدخل في صميم الموضوع ولا أن أسألها عن سر حبها لمصر الذي تكنه، ولا عن كنه مرضها الذي تعانيه، وإنما اكتفيت بأن قلت لها: أراك تفتقدين الأنيس المؤاسي وأنا أعلم أنك مخطوبة إلى السيد جاك. والخطيب صفي القلب ونجي النفس وشريك المستقبل. وهو كما ينم عليه حاله يهواك أشد الهوى، ويرعاك أصدق الرعاية. فلو أنك بادلته الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بفراغ. ولكن أمك تقول على أثر ما أصابه الليلة أنك لا تبالين به إذا حضر، ولا تسألين عنه إذا غاب، ولا تردين عليه إذا كتب، فهل هذا عرض من أعراض ذلك المرض؟.

فسكتت نورا قليلاً ثم قالت في شيء من البطء كأنما تعد كلماتها عدًا: يجوز أن يكون للأزمة النفسية التي أكابدها منذ ستة أشهر بعض الأثر في فساد الحال بيني وبين جاك، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف بين مزاج ومزاج، والتباين بين خلق وخلق:

أنا خيالية وهو واقعي، وأنا روحانية وهو مادي، وأنا مؤمنة وهو طبيعي، وأنا أفهم الحياة على أنها آلة موسيقية وأنغام، وهو يفهمها على أنها آلة كاتبة وأرقام.

فأنا لا أصلح له وهو لا يصلح لي. وما كانت خِطبتنا إلا عِدة وعدها أبي إياه لنباهته في دنيا المال والعمل.

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحًا فدخلت مرجريت وجورجيت فعاد الحديث إلى مجراه العام. ونزلنا بعد قليل إلى السرداب لنجد العمة ومن حولها سائر الأسرة يتحدثون في اهتمام وجد.

فلما رأونا ندخل وعلى وجوهنا دلائل البشر تهللوا جميعًا ولقونا لقاءهم للعائدين من مفاوضة ناجحة، أو للعاقدين صفقة رابحة. ثم انصر بعضهم إلى البيان وبعضهم إلى الكونكان، وجلست أنا ونورا مع المتحدثين. ولاحظ الثلاثة الكبار يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة الصدر للجلسة، مفتوحة النفس للحديث، فقال الأب موجها كلامه إليَّ وإلى نورا:

كنا نتحدث هنا فيما كنتما تتحدثان فيه هناك. ومن الخير أن نتابع الحديث لنبصر وجه الرأي في خطبة جاك ودراسة نورا من قبل أن تعود صوفي إلى دمشق. وكانوا يعلمون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنا لا عندهم. فقلت: إن من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلها على مهل، فإن قطع العقدة وإن كان أيسر من حلها يؤذي النفس ويجرح الكرامة. وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على احتمال الواقع.

وقالت نورا: وأنا من رأيي أن أبقى معكم إلى الخريف، فإن البعد عن منشأ الدار وإن كان سيحرمني أداء الامتحان سيساعد فيما أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة.

**- 6 -**

أصبحت غرفتي منذ ذلك اليوم قطعة من الروض وقاعة من المتحف. نقلت إليها نورا أجمل ما في الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف. ثم كانت تتعهد كل صباح بنفسها فتنسق الزهر وتنظم الأثاث وترتب الكتب.

وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز إلى فريقين بيني وبين القنصل: فريق الخير وفريق الشر، أو فريق النور وفريق النار، أو فريق المعنى وفريق الحس. فالبنات وأمهن فريق، والبنون وأبوهم فريق. ففي غرفتي تجتمع نورا وأختاها ومعهن الكتاب والبراءة، وفي غرفة السيد (بكير) يجتمع إلياس وأخواه ومعهم الشراب والريبة !.

وتمكنت الألفة بيني وبين نورا فلم تعد تصطحب أختيها في المجيء إليّ. فإذا أقبلتا تريدان لهو الحديث صرفتهما إلى المذاكرة، وبقيت هي جالسة على كرسي طويل ظهرها مسند إلى صدره، وسائر جسمها ممدد على طوله، وفي يدها مجلة تنظر فيها، ولكنها لا تلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهي يقظى في حلم عميق. فإذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ؛ وإن كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضًا في وجه كله معنى وجسم كله فتنة ووضع كله سر!.

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت فعادت العمة إلى دمشق وعاد الأولاد إلى المدرسة، وخلت الدار إلا من الممرض والمريضة أو من المصور والمثال. فوجدت

الفرصة مواتية لأستبطن دخيلة أمرها، واستخرج دفينة صدرها، فقلت لها ذات يوم: أريد أن أعالجك بالتحليل كما يفعل الطبيب المحلل، أو بالاعتراف كما يفعل القسيس المعرِّف. فبوحي لي بكل ما في نفسك عسى أن أجد لك فرجًا من هذا الهم. وأعدك أن يظل الأمر فيما بيني وبينك سر مهنة أو سر اعتراف.

فقالت: وأنا أريد هذا أيضًا، فإني منذ فارقت (الأب إلياس) أشعر بالكرب يخنق صدري وبالقلق يروع ضميري. وقد كنت أستريح إليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح المحزون بالبكاء أو المهموم بالشكوى. وأنت أقرب إلى قلبي منه، لأنك تعيش في موجود الدنيا وهو يعيش في موعود الآخرة، وأنت تشعر بانبساط الربيع وهو يشعر بانقباض الخريف. ولا أريد أن أمضي في المقارنة بينك وبينه..

فقلت لها وأنا أنثر البركة عليها من يدي: إذن ضمنت لك الشفاء بهذه الثقة. ثم جلست على كرسي الاعتراف وأخذت نورا تعترف لي تقول:

- 7 -

أخذت نورا تعترف باللغة الفرنسية لأنها تستسهلها لا لأنها تفضلها، قالت ما ترجمته:

" كان ذلك في تموز من عام 1931، وكان من عادتي في العطلة الصيفية إذا لم أعد إلى بغداد أن أضم يدي إلى يد عمتي في إدارة الفندق، فأدعها تصرِّف أموره العامة فتمون المطبخ وتهيئ الموائد وتجهز الغرف وتتعهد الأثاث وتراقب الخدم، وأجلس أنا إلى المكتب في المدخل أستقبل النازلين وأرصد مالهم، وأودع الراحلين وأقبض ما عليهم، وأجيب عن كل سؤال، وأستمع إلى كل شكوى.

ولم أكن أدري أي شيء فيَّ بجذب النزلاء إليَّ، ويرميهم بأثقالهم عليَّ؛ فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعي أو يختلقها ليقف أمام المكتب يسأل من غير موجب، ويتكلم في غير موضع، ويُشفع الكلام الذي لا معنى له بالنظرة التي تقول والبسمة التي تدل، فأجيب عن السؤال بالنفي أو الإيجاب، وأرد على الكلام بالصمت أو الإيجاز، وأغمض عيني عن النظرات والبسمات فلا تجد طريقها إلى نفسي، ولكنني بعد أيام ضقت ذرعًا بهذا الفضول فتخليت عن صدر المكتب للكاتب وانتحيت ناحية منه،

وأخذت أراقب الأمور من بعيد فلا أتدخل إلا فيما يتصل بالإدارة العليا للفندق. وكنت مع ذلك أنظر خلسة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف، فأرى صورًا من الناس وأنماطًا من اللباس وأخلاطًا من اَللُغَى تجعل نهاري وبعض ليلي حفلة مستمرة في سينما. وكان لا يستوقف نظري من هذا الخليط المتغير المتجدد إلا الجميل والأنيق والمهذب، وهؤلاء يغلب عليهم التصوُّن والتعالي فلا يتبذلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث. وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع لم أستطع أن أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى إلا هذه الصفات البادية. كان السهوم والوجوم ظاهرين على وجهه في دخوله وخروجه، وكان متزايلا لا يدور في فلك الفندق ولا يشعر بجاذبية أهله. إنما كان يدور كما علمت من بعدُ حول شمس غير منظورة لم يبق منها في دنياه إلا شعاعة تضيء عينه بقدر ما يعيش، وحرارة تحيي قلبه بقدر ما يعيش. كان يجلس وحده في البهو، ويأكل وحده على المائدة، فإذا كتب لا يكتب إلا رسالة، وإذا قرأ لا يقرأ إلا صحيفة. والصحف التي كان يقرأها كانت مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح. فهل هو مصري؟ لو سمعته لعرفته من لهجته، ولو عرفت اسمه لكشفت عنه من بطاقته. ولكنه لم يكن يعوج بالمكتب إلا ليودع الكاتب مفتاح غرفته أو ليسترده منه. وكنت وأنا في ركني المنعزل ألح عليه بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أو جلس في الردهة لعله يلقي عليّ نظرة أو يوجه إليّ كلمة فما كان وجهه يتعدى وجه الكاتب، ولا عينه تفارق صفحة الكتاب. إلى أن اضطر الكاتب يومًا أن يغيب واضطررت أنا إلى أن أجلس على كرسيه، وأقبل هو في الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج؛ فحيَّا في احتشام وأدب. وألقى بمفتاحه في رقة ولطف. ولما رأى بين يدي كومة من بريد الفندق كنت أفرزها لأوزعها على الغرف، وجه إلي من تحت أهدابه الوطف نظرة حيية وقال: هل لي في هذا البريد بريد؟ فسألته عن اسمه فقال: نبيل طاهر. فعدت أقرأ العناوين في شيء من البطء لا أدري لماذا، حتى استخرجت له من بينها خمس رسائل صادرة عن القاهرة فأخذها شاكرًا وخرج.

عرفت في هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وجنسه وقليلاً من خلقه وكثيرًا من صفاته. وانصبَّ في شعوري عن طريق نظرته وكلمته وبسمته دفق من جاذبيته الروحية

شغل بالي به وصرف هم إليه. كان مثال ما ارتسم في ذهني من صورة المصري الصميم: وجه ناعم أسمر مشرب بالحمرة كأنما ورَّدته نشوة الخمر، وشعر فاحم متموج أثيث قد أشرفت منه جمة على ناصيته، وعينان كحلاوان تشع منهما الطيبة وتشيع فيهما البراءة، وفم رقيق حلو يفتر افترار الطفل عن ثغر صدفي نضيد، وهذه هي الصفات الطاغية التي تبرز لعينيك أول ما تراه فتشغلك عن صفاته الأخرى. كنت أتمنى كلما دخل أو خرج أن يمر بي فيسألني شيئًا أو يكلفني أمرًا، ولكنه كان كما قلت محصورًا في حياته الخاصة لا يخرج منها أبدًا ولا يستقبل فيها أحدًا، فملكتني رغبة قوية في أن أطرق عليه باب دنياه طرقة خفيفة فلعلي أكشف ما وراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ويوجب هذه العزلة، ففرزت يومًا بريده بنفسي وحجزته. ولما علمت أنه جالس في البهو يقرأ صحفه ذهبت إليه في شيء من الحرج وقلت له: هذه رسائلك من بريد اليوم جعلت من حملها إليك فرصة أسألك فيها عن مقامك في الفندق. فنهض الشاب واقفًا وتسلم الرسائل. ثم تلطف فدعاني إلى الجلوس فجلست. وخيل إليَّ أن علامة من علائم الرضا قد تراءت على وجهه، فقلت له: أراض أنت عن غرفتك ومائدتك وخدمتك؟ أعندك ما تشكوه أم لك ما ترجوه؟ فقال وهو يخفي ربكة بدت عليه: شكرا يا آنسة! كل شيء مريح وكل أمر ميسر. فقلت له: دع هذا التحفظ واجعلني هنا بمثابة أختك واسترح إلي بما عسى أن يكرب صدرك من هموم الغربة، فإني غريبة مثلك أشعر بما يعتري الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق. فقال لي في لهجة مصرية وصوت خفيض: يسعدني ويزهوني أن ترفعيني في نظرك إلى منزلة الأخ. ولقد قلت إنك غريبة وكان بعض الشك يخالجني في أنك سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملامح، فهل أنت عراقية؟ فقلت: نعم أنا بغدادية أطلب العلم في دمشق، وصاحبة هذا الفندق عمتي، فأنا أساعدها في إدارته شهري العطلة. وجاء عامل التليفون يدعوني إلى مكالمة فاستأذنت منه وانصرفت.

أنس إليَّ منذ يومئذ نبيل، فكان يجلس في الردهة لا في البهو، ويوجه كلامه إليّ لا إلى الكاتب، ويفضل أن يبقى في الفندق على أن يخرج، ولكن الحياء منه والإباء مني كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المردَّد والكلام العابر، ففكرت في حيلة تدني

المجلس وتطيل الحديث: فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لأتلمس فيها المناسبات التي يصح أن تكون موضعًا لسؤال أو موضوعًا لحديث. ثم أدنو منه في الوقت الذي ينصرف فيه النزلاء فيخشع الصوت وتسكن الحركة فألقي إليه الخبر أو أورد عليه السؤال، فيتطلق وجهه بالبشر، ويتفتح ذهنه بالكلام، فأقول ويقول، وأجول في كل معنى ويجول، يروي لي عن مصر وأوري له عن العراق، ويحدثني عن سعد وأحدثه عن السعدون [1] ثم تجدد بعد ذلك المجلس وتكرر الحديث حتى توثقت بيننا الألفة وكادت أن تزول الكلفة.

**- 8 -**

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق وعما رأى من مفاتن الطبيعة في الغوطتين وبلودان والزبداني. فقال بلهجة الآسف: إنه قضى في دمشق نصف شهر دون أن يجد في نفسه رغبة في نزهة أو حاجة إلى رحلة. وكل ما كان يصنعه في هذه الأيام أن يتجول مع أفكاره في شارع، أو ينفرد مع همومه في قهوة. فقلت له وقد وجدت الفرصة لأكشف عن سره وأمره: يؤلمني أن أسمع منك كلمة الهم وأنت في السن التي لا تبالي التبعة ولا يهمها من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحة، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة؟ وهل تتيح لأختك الحانية عليك المتعلقة بك أن تحمل شيئًا من عبئك الذي حرمك من لهو العيش وشغلك عن بهجة الحياة؟ فقال: لّشدَّ ما يسعدني ذلك! فإن كتم الألم في الصدر ككتم البخار في القدر، لا يزال يفور ويضطرب حتى يجد متنفسًا من الضيق فيهدأ ويستقر. وإن الآهة ينفثها المريض أو الشكاية يبعثها الحزين إلى الراحة من ألمه أو الفرجة من كربه. ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك علاجًا من دائي الذي أشكوه وتسلية عن همي الذي أقاسيه. وغدًا الأحد وهو يوم عطلتك فتعالي إذا سمحت نخرج إلى ظاهر المدينة فأشركك في أمري، وأفضي إليك بذات صدري، وأتملى في الوقت نفسه بعض منازه الشام في صحبتك.

---

(1) عبد المحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزراء العراقية ثم انتحر لأسباب سياسية فكان انتحاره الأليم حديث الناس في كل مكان.

لم أجد في الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة، لأني مسيحية لا تقيدني تقاليد البيئة، ولأني مراهقة تستهويني تجربة الخروج الأول مع شاب، ولأني مشوقة منذ أيام إلى حديث طويل مع نبيل.

تواعدنا على اللقاء في مكان قريب من الفندق وقلت لعمتي بعد أن شهدنا قداس الأحد: إن إحدى صديقاتي من الطالبات دعتني إلى الغداء والسينما فلا تقلقي عليّ إذا تأخرت.

وانطلقت بي ونبيل السيارة إلى (دمر)، وكانت الغوطة الغربية قد تأنقت في زينتها الطبيعية فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر، ومن أمواهها الدافقة بهجة للمزاج المكتئب، ومن مروجها الخضر سكينة للحس المضطرب. وكان مقهى دمر قد امتدت موائده على ضفتي الجدول الهادر وقد أخذت زخرفها بمن جلس إليها من بنات يوم الأحد وأبنائه، فاخترنا مائدتنا في ركن منعزل من طرف المكان وجلسنا إليها متقابلين وجهًا لوجه وعينًا في عين وفمًا إلى أذن. وكان نبيل لا يزال مأخوذًا بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق الساحر من الروابي الحالية في صدر الجبل، والأنهر الشادية في حضن الوادي، والمنازل الغارقة في زهور الروض، فقال: ما رأيت أبدع من هذا المنظر ولا أنفذ من هذا السحر، ولولا أن أتاحك لي الله لظللت محرومًا من هذا الجمال مشغولاً عن هذه المتعة. فقلت له: إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤيتها صدأ القلوب، وتبسط زورتها انقباض المشاعر، وسنزورها معًا بعد أن أصفي نفسك من أكدار الهم وأخلي بالك من شواغل الحزن، فافتح لي صدرك واسترح إليّ بما تكن فيه. فقالت: لا يا نورا. ليس الأمر سرًا أكتمه ولا ألمًا أكنه، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتي وحطمت وجودي وكان لها في الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد.

أحببت ابنة عمي حبًا غلب على عقلي وشعوري. وكان الذي حببها إليَّ جمالها الفاتن وخلقها العذب وروحها اللطيف، وعشرة طويلة متصلة تأصل فيها حبنا ونما نمو النبتة الغضة في الثرى الخصب والجو الملائم، فاستوت على ساقها، وتفرعت عن أصلها، ثم أورقت، ثم أزهرت، ثم أثمرت؛ ثم رفت علينا بالندى والظل، ونفحتنا

بالنعيم والعطر. ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذي نسكن إليه ونطمئن فيه. فأخذ أبي وعمي يمهدان للبناء ويستعدان للعرس. وعلى فجأة نعب على عشنا العتيد غراب، وانقضت على شجرتنا الوريقة صاعقة! قالت امرأة عمي لأمي، وبوادر دمعها تقطر على خدها الشاحب: إن نبيلاً واحسرتاه أخو عقيلة في الرضاع؟ !.

لقد ذكرتني وداد حاضنة ابنتي فتذكرت أني أرضعت نبيلاً مرارًا وأنت مريضة. فماذا نصنع يا أختي لنخفف وقع هذه الصدمة على نبيل وعقيلة؟.

شكت أمي أول الأمر في سلفتها وأساءت بها الظن، فلعلها وجدت لابنتها عريسًا خيرًا مني فزعمت ما زعمت، ولكن الحزن الشديد الذي بدا عليها، والألم الممض الذي نال منها، والحب المحض الذي تكنه لي منذ الطفولة، والسرور الطاغي الذي كانت تبديه منذ أعلنت الخطوبة، كل أولئك كان يبدد كل شك وينفي كل ريبة.

شاع الخبر المشئوم في بيتينا شيوع النار فشوى أكبادًا وكوى أفئدة. وكان الخبر بالنسبة إليّ يأسًا لا نور للأمل فيه ولا سبيل إلى الصبر عليه، فضاقت بي الأرض وثقلت عليّ الحياة، فذاب جسمي ووهن عظمي، ولزمت السرير أيامًا لا يأخذني نوم ولا يهنأني طعام، حتى خاف عليَّ أهلي فقلبوا على جسمي ونفسي صنوفًا من العلاج فلم ينجح فيهما شيء، وأخذ أبواي يسيران عني بالأمل في أن يجدوا شهادة تكذب الرضاع أو فتوى تجيز الزواج. ومنعوا عقيلة من لقائي لعل بعدها عني يساعدني على سكوت الألم واندمال الجرح. ثم رأوا أن أبعد عن وهيج النار ومثار الشجن فقرروا أن أرحل إلى لبنان وسورية. وهأنذا بعد شهرين قضيتهما في ضهور الشوير ودمشق لا أزال كما ترين مطبق الجفنين على صورتها، مطوي الجوانح على حبها. أرسل إليها كل مساء رسالة، وأتلقى منها كل صباح رسالة. ولم يمل قلبي إليك إلا لأن فيك مشابه كثيرة منها، فإنما أراها في وجهك، وأسمعها من فمك، وأتمثلها في روحك العذب وطبعك المهذب.

ثم أقبل الخادم بألوان الطعام فسكت هو واستمررت أنا أصغى إلى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيالي وتتردد في نفسي فتعتريني الشفقة عليه وتساورني الغيرة

منها. الغيرة؟ نعم يا سيدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثًا لهذا الشعور ولا معنى لهذه الكلمة.

**- 9 -**

أصبح من همي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس إليه في الفندق، وأكثر الخروج معه إلى الحدائق. ولم تعوزني الوسائل التي كنت أتذرع بها إلى عمتي لتعليل الجلوس الطويل أو الخروج الكثير. وكانت أحاديثنا سِقاطًا من أفانين شتى، منها النجوى والشكوى، ومنها الطبيعة والناس، فإذا أفضى بنا الحديث إلى ذكر عقيلة عطفته برفق إلى موضوع آخر حتى لا يتذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى. ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملني على طي الحديث عنها، ذلك هو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه وتستأثر بحبه.

لقد أحببته منذ رأيته. ثم أخذ هذا الحب منذ عرفته ينمو على مرور الساعات والدقائق بانسكاب روحه الروي في روحي الظمآن عن طريق النظر والحديث والخلوة. وكان من أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنه مشغول عني وأني يائسة منه. هو مشغول القلب منذ صباه بابنة عمه. ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكن به عن أصالة. وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب؛ لأن الهوى بيني وبينه غير متكافئ ولا متبادل. هو يحب فيَّ عقيلة لأني صورتها في عينه؛ وأنا أحب فيه وجودي لأنه حقيقته في نفسي. وهو مع ذلك قاهري وأنا بغدادية، ومسلم وأنا مسيحية، فاقتراني به موقوف على مواتاة الظروف وموافقة الأهل. ولو كانت إقامته في دمشق ستطول لكان من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير في غيرها، ولكان من الجائز أن تكون هذه الغير أنا. وإذا وقع في حبي كما وقعت في حبه سهل الحب كل صعب وأدنى كل بعيد؛ ولكن بقاءه بيننا موقوت مهما يطل، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهما يكن. وليس للعقل على الهوى سلطان حتى أحتكم في حاضر أمري ومستقبله إلى المنطق، فلم يبق إلا أن أفوض أمري إلى الله وأترك زمامي في يد القدر.

أخذت أعبُّ هوى نبيل عبًا متتابعًا لا أتنفس خلاله ولا أكتفي منه. كنت أحبه بأذني وعيني وقلبي في كل كلمة وفي كل نظرة وفي كل خفقة، في جلوات (الزبداني) وخلوات بلودان ومسارب الحميدية ومسارح الغوطة؛ لأني كلما فكرت في أن يوم الرحيل آت لا ريب فيه، عشت هذه الأيام الباقية بالعرض لا بالطول، فكلما خطوت إلى الأمام خطوة، قطعت عن اليمين غلوة وعن الشمال غلوة، حتى امتلأ وجودي كله بهواه، فلا أفكر إلا فيه، ولا أحلم إلا به، ولا أعيش إلا معه. غبنا معًا ثلاثة أسابيع في نشوة متصلة من رحيق الحب لم نفق منها إلا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلاً إلى العودة، كان وقعها عليه وقعًا مبهمًا لا هو سار ولا هو محزن. كان مشوبًا بالأسى على فراقي وبالفرح للقاء أهله. أما وقعها عليَّ بالرغم من توقعي لها فقد كان أشد من وقع خبر الرضاع على عقيلة. ذلك لأن عقيلة ستراه بحكم الجوار والقرابة. أما نورا فلن ترى نبيلاً حتى يرى الأعمى النور والميت النشور والحالم الحقيقة.

قضينا ليلة الفراق ساهرين في الفندق، يتحدث هو عما سيلاقيه من الكرب إذا لم يجد في القاهرة من يواسيه ويسليه، أو أتحدث أنا عما سأعانيه من الفراغ الذي سيتركه في حياتي بعد تنائيه وتناسيه. ثم تمنى وتمنيت أن تتاح لي الوسيلة لأزور مصر فنمضي معًا في طريق هذا الهوى العذري إلى الغاية التي كتبها علينا القضاء فيه.

وفي الصباح صحبته إلى ميناء بيروت. وهناك على سلم الباخرة جمعْنا ما تفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا وضغطناه في قبلة قوية كانت هي الأولى والأخيرة! ثم عدت إلى دمشق من غير نور ولا أنس ولا أمل. عدت كالثكلى شيعت وحيدها إلى المقبرة ورجعت لترى أثره في كل غرفة، وتجد ريحه في كل لعبة، فهي تفر من البيت الذي يذكرها به، إلى البيت الذي ترجو أن يسليها عنه.

وكذلك فعلت. فررت من الفندق إلى المنزل، ومن المكتب إلى السرير. ثم اعتراني من الهم والسقم والانقباض ما قصت بعضه عليكم عمتي.

وبعدُ فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت، وأحست الوهيج ولم تمس النار، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل، والحال كما ترى تشتد ولا تخف، وتستحكم ولا تنفرج، فهل عندك لغصتي مساغ ولأزمتي فرج؟

فقلت لها وقد نفست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت إلى أن تتقبل الخلاص من الكاهن: إن أمرك يا نورا مع نبيل وجاك لهو الأمر الذي وصفه الشاعر بقوله:

جُننا بليلى وهي جُنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وسأحاول أن أعالجك بما عالجت به نبيلاً، فلعلي أصيب من النجاح فيك أكثر مما أصبت أنت من النجاح فيه.

**- 10 -**

لا علاج للعاشق اليائس إلا السلوان. والسلوان شراب كان الأعراب في البادية يتخذونه من صب ماء المطر على خرزة تسمى السلوانة ثم يسقونه لعاشق ليسلو ... ولم يعد في الإمكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية، واأسفاه فخلى محلها النسيان. والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل يمحو الصورة من الذاكرة ويطمس الماضي في الذهن. لذلك كان همي الأول ألا أدع لها وقتًا فارغًا تجتر فيه ما اختزنته في صدرها من رقيق العواطف وجميل المواقف نبيل، فحاولت أن أنسخ عاطفة بعاطفة، وأستبدل موقفًا بموقف. وكانت هي قد وجدت في قربي جزءًا من عيشها الذاهب وأملها الخائب لذلك التماثل الذي بيني وبين حبيبها في الجنس والسحنة واللهجة، فجعلت وقتها كله لي، وأردت أن يكون فراغي كله لها. فنحن في البيت نقرأ ونتحدث ونلعب الورق. وفي الخارج نجلس على رأس جسر (مود) في قهوة ضحيانة ترقد على صدر دجلة النابض وتستغرق في الضوء والسكون ، فنجعل ظهرينا إلى أحلاس القهوة ووجهينا إلى صفحة النهر وأعيننا إلى ضفة الكرخ، فنجتلي هذا المشهد الرائع قليلاً ثم نرتد إلى أنفسنا فنتذاكر كل حديث إلا حديث دمشق. وكثيرًا ما كان يلهينا الحديث المشقق عن مائدة البيت فنأكل (الأبيض والبيض والعنبا)[1] من البائع لجوال، ثم نواصل النجوى والحديث إلى المساء. وفي بعض الأصائل من أيام القيظ كنا نفر من وقدة البيت إلى (جزرة) دجلة، فنجلس حيث يتنفس علينا الماء بالطراوة، ثم نأكل السمك المسجوف

(1) الأبيض: الخبز والعنبا: المنجو. تخلل وهي فجة، وهذا يشبه السميط والبيض عندنا .

ونتفكه بالبطيخ المبرّد، ثم نقضي العشية في زورق يهدهدنا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذي طالما رقص عليه (العقاب) و (الدلفين) بالخلفية الأمين وحسانه وقيانه ونداماه. وفي أيام الجمع والآحاد كنا نخرج من بغداد منفردين إلى منازه العراق ومغانيه وآثاره. فيومًا في مجالي (الرستمية) على نهر ديالي نستمتع بالخلوة والسكون، ونستغرق في الهوى والشجون. ويومًا في بساتين (لعقوبة) ذات الظلال والثمر، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجع على العشب أو مقاعد على الجداول أو مماشي تحت الكروم، ثم نتبادل الحديث والنظر، فتارة تقول وأنظر، وتارة تنظر وأقول. والقول كان أفانين من شعر العاطفة، والنظر كان أشعة من نور القلب. ويومًا بالكاظمية أو كربلاء أو النجف نزور أضرحتها المقدسة ذوات القباب المذهبة، ونروح بعبيرها المبارك على النفس العانية والكبد المقروحة. ويومًا بإيوان كسرى أو أطلال بابل أو آثار نينوى، نجعل منها دروسًا في تاريخ الجبارين من بني الإنسان، نستخدم فيها لغة العقل لا لغة القلب، ونستخرج منها ملحمة الماضي لا مأساة الحاضر.

كانت كل هذه الخلوات والرحلات وما تخللها من فتون وفنون أحجار اللحد لحب أخذ يموت، وأعواد المهد لحب أخذ يولد! كان قلبها لا يزال مذبذبًا بين جاذبية الحب الذي غزاه على بَرَدي، وجاذبية الحب الذي اعتراه على دجلة. وكان قلبي لا يزال مخدوعًا بأنه يمثل عواطف هذا الحب ومواقفه وأعراضه لينقذ الفتاة من بلاء وقعت فيه، ولكن الذبذبة لم تلبث أن اطمأنت إلى قرار، والخداع لم يلبث أن تكشف عن حقيقة! واستعجل هذه النهاية أن الفتاة المراهقة أو أي فتاة لا تستطيع أن تعيش طويلاً على ذكرى حب. تعيش عليها لأنها تكره الخلو. فإذا شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين، وخرجت من الخيال لتعيش في الواقع. وهكذا أصبحنا محبين محبوبين لا نتحدث عن ثالث ولا نفكر في غائب. وكان من أمري معها ما كان من أمرها مع نبيل: حاولت أن تسليه عن عقيلة فوقعت في حبه، وحاولت أنا أن أسليها عن نبيل فوقعت في حبها: ولم يكن الحب الذي بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبيني إلا حبًا صوفيًا يصيب ذوي المشاعر المرهفة ولا يكون له عرض ولا غرض إلا حديث القلب للقلب وأنس الروح بالروح في الخلوة العفة والنزهة النزيهة. ليس لهذا الحب مدى من

الطبيعة والحس حتى يفتر إذا بلغه، إنما هو كالعشق الإلهي في عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكرته، لأنه اتحاد وجود في وجود وفناء ذات في ذات.

مرت الأيام على هذه الحال مرور الحلم اللذيذ في النوم الهادئ لا يزعجنا كابوس من هم ولا نبوٌّ من قلق. وكانت نورا في تلك المدة قد عاد إليها صفاء نفسها ونضارة صباها فتفتح جسمها الغض في حرارة الحب كما يتفتح الورد الدمشقي في دفء الربيع. فهي تمرح وتلهو وتقابل وتشارك، فاغتبطت الأسرة بهذا التغير وتوسعت في اللهو وتبسطت في الأنس، وعاد اللهو الرحيب سيرته الأولى من اللعب والرقص والموسيقى. وقضينا في هذه النشوة الصوفية أحد عشر شهرًا لا نسأل القدر المقدور متى نفيق منها ولا كيف ننصرف عنها. ولماذا نسأل؟ أنا أعلم أنها موقوتة ببقائي في بغداد. وبقائي في بغداد لن يتجاوز أول هذا الصيف. وهي قد عودت نفسها ألا تفكر في الغد ما دامت مشغولة الفكر باليوم. ولكن الزمن ينقضي، والعمل ينتهي، واليوم الذي سأغادر فيه بغداد يتحدد. ولابد أن أبلغها الخبر. وسأبلغها إياه في أسلوب الكذب. والكذب الأبيض الذي ينفع ربما كان خيرًا من الصدق الأسود الذي يضر. قلت لها ذات يوم ونحن نتقي بالنوافذ المغلقة والستائر المسدلة عاصفة التراب التي تثور على العراق من حين إلى حين فترد نهاره ليلاً وسماءه أرضًا وصفاءه كدورة: إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب، وسأقضيها في القاهرة بين أهلي، وسأعود إن يشأ الله مع الخريف.

وجمت أول الأمر للخبر المنتظر ثم تمالكت نفسها وقالت في لهجة المستسلم وهيئة المحزون: لقد شفيتني من داء بداء. وسأفتقدك في أشهر العطلة الثلاثة. وأخشى أن يهاجمني الهم وأنا وحدي فأنتكس. وأرى أن أقترح على أبويّ أن أصحبك إلى دمشق فأقضي الصيف مع عمتي، حتى إذا حانت عودتك إلى بغداد مررت بي فأعود معك.

* * * * *

وفي صباح الغد خرجت فاشترت لي ديوان الشرقيات للامرتين ، وألبومًا فاخرًا ضمته على بعض صورها في أسنان وأوضاع مختلفة، ثم خاتمًا ذهبيًا من صنع (الصُّبة) نقش عليه اسمي بالميناء ولا يزال بعد تسع وعشرين سنة في إصبعي. واتخذنا الأهبة

للسفر، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات شركة (نيرن) في ليلة من ليالي الصحراء تطلَّق دجاها بالنجوم الزهر حتى باتت كيوم الدجن.

وكانت نورا قد قضت الهزيع الأول من الليل في الحديث عن وجوه السماء وأساطير النجوم وحياة الأعراب وقصص الحب حتى قرصها البرد فاستدفأت ببطانيتها ومالت على كتفي ونامت.

وفي تباشير الصباح المشرق المطلول بلغنا فندق العمة صوفي، فتركت نورا تستنشي نسائم الذكرى وتتعلق بأسباب الأمل، وواصلت السفر إلى بيروت.

ومن الفضول الذي لا يزيد في علمك أن أصف لك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليقة كما عرفت غشية الموت، وذاقته كما ذاقت حرقة الحريق. والذي يهمك أن تعرفه أني لم أكد أستجم من عناء السفر الطويل في السيارة والباخرة والقطار حتى زرت نبيلاً في داره بالمعادي – وكنت قد عرفت عنوانه منها – فقدمت نفسي إليه، وقصصت خبرها عليه، فروى لي من عفة نفسها ورقة قلبها وحسن حديثها أكثر مما رويت، وشكا إليَّ من لوعة البين عنها وحرقة اليأس منها وحرارة الشوق إليها أكثر مما شكوت. واجتمع هواي وهواه فاتحدا في صداقة وثيقة ومودة خالصة. وعشنا معًا ولا نزال نعيش في ذكرى هذه النفس الطيبة التي ظهرت في حياته وحياتي ظهور الأمل الباسم في قطوب اليأس، والروح المؤنسة في وحشة الغربة، ثم غابت في الأفق البعيد كما تغيب الرؤيا السماوية في حجاب الغيب، ثم لا يبقى منها في القلب إلا جلالتها، ولا في العين إلا سناها.